

الإـلـيـاء 18-08-2010

1083- الغـيـرـيـةـ الـثـانـيـةـ (ـالـفـصـلـ الثـالـثـ)



الخلاص

مقدمة :

هذه هي القصيدة الأخيرة قبل قصيدة الخامسة، يا رب سهل !  
سبق أن كتبت فصلاً بأكمله بعنوان "أمي" في الترحال  
الثالث من ترحالاتي (سيرة ذاتية في أدب رحلات)، ولا أحد عندي  
رغبة أن أضيف كثيراً أو قليلاً في هذه المنطقة. لكن هذه  
القصيدة ليست هي أمي بقدر ما هي رحلتي شخصياً وأمي في  
خلفيتها. أفضل لو بدأ القارئ بقراءة ذلك الفصل وهو يحتوي  
هذه القصيدة ضمناً، كما يحتوى نصيبي لنهايتها مما سوف أورده  
غالباً فيما يلى من حلقات.

لكن هذا الشرح على المتن يهتم أكثر بربط هذه القصائد  
بما هو علاج نفسي، وأنا أتساءل الآن وأنا على وشك الانتهاء  
من العمل،

هل هو حتم على أن أفعل هذا الربط حتى لو لم يرد  
تلقيانياً؟

ربما كان الأمر كذلك، وإلا لماذا هذا الكتاب كله أصلاً ؟  
تببدأ القصيدة بحوار مع أمي هكذا:

-1-

- ليه يامئه؟ كان ليه ؟

لـما اـنـتـي مـا "ـنـتـيـشـ" كـانـ لـيـهـ ؟

أـنـا ذـنـبـيـ إـيـهـ ؟

أـنـا مـينـ ؟ أـنـا فـينـ ؟ أـنـا كـامـ يـاـمـ ؟

أـنـا إـيـهـ ؟

= جـرـىـ إـيـهـ يـاـ اـبـنـ يـاـ حـبـةـ عـيـنـ،

طـبـ مـاـ اـنـتـ أـهـ ؟

بـقـىـ دـاـ اـسـهـ كـلـمـ

مـاـ هـوـ كـلـهـ تـكـامـ

جـرـىـ إـيـهـ ؟

تبدأ رحلة الوجود باعتراف الأم بأن ولديها قد أصبح خارجها، كياناً منفصلاً عنها، بمجرد انتهاء وجوده لحماً ودماً داخلها، ينتقل الوليد من الرحم الحسدي، إلى الرحم النفسي، في الرحم الجسدي تكون الخمامة محيبة، وفي نفس الوقت الخرقة طليقة، لكن ليس لها هدف إلا الحركة، كما يكون الأمان كاملاً، أما وقد صارا جسدين بينهما مسافة، فإن الحركة تصبح محكمة "بحضور معاً" على مسافة متغيرة، غير مضمونة، تحكمهما قوانين جديدة، مهددة أحياها.

منذ حفل "السبوع" تلجلج الأسرة إلى التأكيد على الأم أن تشحد انتباهاها أن الكيان الذي كان بداخليها تماماً، أصبح خارجها، أصبح كياناً مستقلاً جسدياً على الأقل، كبداية للحمل فالولادة النفسية، ذكرنا من قبل كيف أن السبوع بكل طقوسه المنظمة في المكان والحركات والأهازيج تؤكّد كلها هذه الرسالة. الكآبة التي تصيب الأم في الأيام الأولى للنفاس (حوالى 60 % Maternity Blues) هي تفاعل طبيعي لهذا الانفصال، واستعداد مناسب لعلاقة بين الأم وولديها من نوع آخر.

حتى تسمح الأم بهذا الانفصال، وتعترف بوجود هذا الكائن الجديد خارجها، وهو الكائن الذي حلّت له هنا على وهن ثم وضعته بكل الألم الأخلاق، لا بد أن تكون هي "كائننة" حاضرة بشكل ما، أن تكون موجودة ساعية تعطى الغذاء العلائقى عبر الخبر السرى التواصلى، كما كانت تعطى خلاصة الاحتياجات الغذائية والتنمية عبر الخبر السرى داخل الرحم، ولكن لكي تفعل ذلك بكفاءة لا بد أن تكون هي نفسها "كائن موجود قادر" يمارس علاقات الأخذ والعطاء. لكي "تعطى" هي في حاجة أن تأخذ أيضاً في نفس الوقت، أو قبلاً، من أي مصدر بشرى آخر: أمها عادة، وزوجها (والد هذا الوليد) أحياها (يا ليت!) فالمفترض أن يشارك الوالد الصحيح في الحمل والولادة ضمناً بطريق غير مباشر)، حضور أم الوالدة (فعلاً أو بديلها) هو حضور أساسى أثناء الولادة وقبيلها، الوالدة "تتقطف" على صدر أمها أثناء المخاض بما يؤكّد حاجة الأم أن "تكون" وهي تستعد لأن تعطى شهادة الكينونة للقادم الجديد، فإن لم

"توجد" الوالدة أصلاً بهذا المعنى الإنسان الأساسي، فكيف ننتظر منها أن تعرف لغيرها (ولديها) بما تفتقر هي إليه جداً،

تبـدأ القصيدة هـكـذا:

لـيـه يـامـه؟ كـان لـيـه؟

لـما اـنـقـى مـا اـنـتـيـشـ كـان لـيـه؟

هـذـا اللـومـ : هل يـعـني أـنـ الأمـ الـقـى "لـمـ تـكـنـ" الـقـى هـى لـيـسـ "كـائـنةـ" فـعـلاـ بـماـ هـىـ الـآنـ، لاـ تـسـطـعـ أـنـ تـعـطـىـ وـلـيـدـهاـ حـقـهـ فـيـ الـوـجـودـ كـمـاـ يـنـبـغـىـ؟ـ الإـجـابـةـ بـالـنـفـىـ طـبـعاـ.ـ لـاـ أـحـدـ يـكـونـ هـكـذاـ بـمـاـ هـوـ جـاهـزاـ لـلـعـطـاءـ غـيرـ المـشـروـطـ،ـ إـنـماـ مـنـ جـمـيعـاـ "نـتـكـؤـنـ"ـ بـاسـتـمـراـرـ،ـ وـلـهـذـاـ لـاـ يـجـوزـ أـنـ نـلـوـمـ أحـدـ عـلـىـ أـنـهـ لـمـ "يـكـنـ"ـ خـاصـةـ الـأـمـ،ـ (ـلـمـاـ اـنـقـىـ مـاـنـتـيـشـ)ـ لـكـنـاـ رـبـاـ نـلـوـمـهـ عـلـىـ أـنـهـ تـوـقـعـ عـنـ أـنـ "يـتـكـونـ"ـ،ـ وـهـذـاـ أـيـضاـ يـكـونـ فـيـ حدـودـ الـفـرـصـ الـمـتـاحـ،ـ وـقـلـيلـةـ هـىـ هـذـهـ الـفـرـصـ عـادـةـ،ـ وـفـيـ جـمـعـتـنـاـ خـاصـةـ بـالـنـسـاءـ لـلـمـرـأـةـ بـالـذـاتـ،ـ لـكـنـ حـاجـةـ الـطـفـلـ لـاـ تـخـسـبـهـ هـكـذاـ،ـ هـوـ يـرـيدـ الـاعـتـارـافـ بـغـفـ النـظـرـ عـنـ تـبـرـيرـاـتـ مـنـ حـولـهـ أوـ ظـرـوفـهـ الـوـاقـعـيـةـ.

أـحـيـاناـ يـوـلدـ طـفـلـ مـاـ وـعـنـدـ حـاجـةـ قـصـوـيـ جـاهـزـةـ لـلـتـأـكـيدـ عـلـىـ حـقـ الـاعـتـارـافـ هـذـاـ (ـوـذـلـكـ لـأـسـبـابـ وـرـاثـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ غـيرـهـ)،ـ وـبـالـتـالـيـ يـكـونـ العـيـبـ فـيـ "ـنـهـمـ بـرـنـامـجـ اـحـتـيـاجـهـ"ـ أـكـثـرـ مـنـ قـلـةـ مـصـادـرـ رـيـهـ،ـ وـيـوـاـصـلـ الـطـفـلـ بـوـجـهـ عـامـ،ـ وـهـذـاـ الـطـفـلـ بـوـجـهـ خـاصـاـ:ـ صـرـاخـهـ الـمـعـلـنـ عـنـ حـيـرـتـهـ الـوـجـودـيـةـ،ـ وـحـاجـتـهـ الـأـسـاسـيـةـ بـأـيـ قـدـرـ مـنـ الـاعـتـارـافـ،ـ بـهـذـاـ الـإـلـاحـ الـمـتـسـائـلـ،ـ فـكـلـ اـتجـاهـ:

أـنـاـ مـنـ؟ـ أـنـاـ فـيـ؟ـ

أـنـاـ كـامـ يـامـهـ؟ـ

أـنـاـ إـيـهـ؟ـ

تـعـدـ الـكـيـانـاتـ جـاهـزـ فـيـ التـرـكـيبـ الـبـشـرـىـ مـنـ الـبـداـيـةـ،ـ "ـأـنـاـ كـامـ؟ـ"ـ،ـ التـسـاؤـلـ هـنـاـ لـاـ يـقـصـرـ عـلـىـ "ـأـنـاـ مـنـ؟ـ"ـ أـوـ "ـأـنـاـ إـيـهـ؟ـ"ـ وـلـكـنـهـ يـمـتـدـ إـلـىـ "ـأـنـاـ كـامـ؟ـ".ـ فـيـ التـحلـيلـ التـرـكـيـيـ "ـsـtructural~a~n~a~ly~sis~"ـ يـوـلدـ الـطـفـلـ زـهـوـ جـمـلـ "ـمـشـارـيعـ"ـ الـذـوـاتـ كـلـهـاـ تـقـرـيبـاـ،ـ مـشـارـيعـ بـعـنـيـ "ـبـرـامـجـ"ـ تـنـتـظـرـ التـشـغـيلـ وـالـتـشـكـيلـ وـالـنـمـوـ،ـ وـالـتـسـاؤـلـ هـنـاـ لـاـ يـكـونـ وـاعـيـاـ طـبـعاـ،ـ لـكـنـهـ وـارـدـ كـامـنـ.ـ لـاـ يـطـلـ هـذـاـ التـسـاؤـلـ عـادـةـ فـيـ الـوـعـيـ الـظـاهـرـ إـلـاـ مـعـ (1)ـ بـدـاـيـاتـ الـذـهـانـ،ـ أـوـ فـيـ (2)ـ أـزـمـاتـ النـمـوـ،ـ أـوـ مـصـاحـبـاـ (3)ـ إـلـرـاهـيـاتـ إـلـبـاعـ،ـ تـسـاؤـلـ الـطـفـلـ الـبـدـئـيـ هـنـاـ هـوـ نـفـسـ الـتـسـاؤـلـ،ـ لـكـنـ دـوـنـ أـلـفـاظـ طـبـعاـ،ـ وـأـيـضاـ بـوـعـدـ فـطـرـىـ كـلـيـ غـيرـ مـدـدـ .ـ

ترـدـ الـأـمـ بـطـيـبـةـ دـافـئـةـ،ـ وـفـيـ نـفـسـ الـوقـتـ بـدـهـشـةـ مـفـهـومـةـ :

= جـرـىـ إـيـهـ يـاـ اـبـنـ يـاـ حـبـةـ عـيـنـيـ،

طب ما انت أهْهَ !

بقى دا اسْهَهَ كلام !!!

ما هو كله تمام

جري إيه !

"كله تمام" بمقاييسها الآملة، وفي حدود قدرات عطائها المتواضعة

ثم تنتقل الرسالة فجأة إلى مخاطبتها طفلها "الوالد" أملا داعماً منتظراً، الأم تعتبر ابنها والدها أحياناً منذ الولادة.

رحلة البناء السري (الطفل العملاق الطيب)، والتحمل العطائي (هل الحامل)، قد تتم حتى لو لم يأخذ الطفل حقه، ولا يصل إلى الأم بعد نجاح الكائن الجديد أن ينمو، ويتحمل، ثم يستمر، ويحمل، إلا أنها ترى طفلها "الوالد" أصبح قادراً على العطاء، وأن عليه أن يستمد وجوده من التمادي في هذا الدور الذي أوضحنا ثُنْهُ بشكل شبه كامل في النشرات السابقة (هل الحامل) نشرات 28/7/2010 ، ( ، 4/8/2010 )  
(11/8/2010)

الأم هنا تنكر تساؤلات ابنها الوالد، ولا ترى احتياجات ابنها "الوليد"، لكنها لا تنكر لها، فهي لا تتصور أن هذا الوالد المعطاء إلا أنه قادر وبالتالي على "التغدية الذاتية" بمواصلة العطاء، وأنه سوف يكتمل بمواصلة ذلك دون حاجة إلى هذه الوقفة وهذه التساؤلات وإعلان هذا الاحتياج هكذا، فهي تمضى تطمئنه وتبرئ نفسها:

= يا جدع يا أمير ياللى بتتدّى،

إوعى هُهْدى.

ثُنْك إِدَى

بكره ثُعَدَى.

ياسلام يا ولَدُ.

ما في زيك حذ.

ماتفَّگَرْشى، دا الفكر مرار.

ودا بير يابنى وما لوهشى قرار.

- بسَ يامَهَ لو قلقي ليه ؟

كان ليه ؟

= جرى إيه ؟ فيه إيه ؟

(كان ليه ؟ كان ليه ؟)

دِهْدِي ! هِيَ ! "عَامِلُهُ" ؟

وَلَا اَنَا قَصْدِي ؟ دِهْدِي !

تحتد الأم بحق على أنه حتى لو أنها عجزت أن تعطى ولیدها اعترافاً يستحقه، حتى لو أنها مسؤولة ضمنا على هذه الوقفة ومحنتوي هذا الاحتجاج، حتى لو أنه يلومها حباً وضففاً طبيعياً، فهي غير مدانة، وهي لم تقصد أبداً من ذلك، لكن، لعل هذا هو غاية ما عندها

### وإلى الحلقة القادمة

- جموعة هذه القصائد في تصورى تتكامل ويمكن أن يجمع مستقلة لتبيان نوعاً من المسار يضطر كثير من الناجحين أن يسلكوه